الأنثروبولوجيا والنظام الديني:

حضي النظام الديني باهتمام العديد من العلماء وأصحاب النظريات والمناهج التي تباينت تفسيراتها فيما يتعلق بالنظام والشعائر والممارسات الدينية. وكان اهتمام هؤلاء العلماء في عمليات التفسير منصبا على تفسير الظواهر الدينية في ضوء مشاركة وتفاعل المجتمع. وجاء علماء القرن التاسع عشر بالعديد من النظريات والمناهج المفسرة لنظام المجتمع، وقد تسابق هؤلاء العلماء في التفرقة بين طبيعة المناهج العلمية وتطبيقاتها والمناهج الفلسفية ومدى قدرتها على فهم ظواهر ونظم المجتمعات. وربما كان السبب وراء تلك الاختلافات في الرؤى للمناهج وتفسيرتها راجع إلى الدور الذي قام به علماء القرن الثامن عشر أمثال " دفيد هيوم" و "آدم سميث" ونظرتهم إلى المجتمع بأنه نسق طبيعي، وبهذا يكون نظام الدين طبيعيا في المجتمع. ومن هنا جاءت الحاجة ماسة لتطبيق المناهج العلمية ومنها اتجاه العلماء والأنثروبولوجيين إلى استخدام " المنهج الاستقرائي" وليس مناهج الفلسفة العقلية، ثم اتجه العلماء بعد ذلك إلى استخدام المنهج المقارن والذي جاءت استخداماته من جانب العلماء كرد فعل لتشابه الطبيعة البشرية.

ورغم أن بعض العلماء ومنهم " دوغالد ستيوارت" في القرن الثامن عشر قد أطلقوا على معرفة التاريخ الخاص بالمجتمعات الإنسانية ما عرف بمصطلح التاريخ النظري أو التاريخ الظني أو التخميني إلا أن الدراسات المنهجية للنظم الاجتماعية لم تظهر إلا في منتصف القرن التاسع عشر حيث ظهر العديد من الكتابات والنظريات منها على سبيل المثال كتابات السير " هنري مين" عن القانون القديم، والعالم السويسري " باخوفن" عن حق الأم، وفوستيل دي كولانج" عن المدينة العتيقة، وكتابات " إدوارد تايلور" حول الثقافة البدائية إلى جانب " لويس مورغان" عن روابط الدم والمصاهرة، ثم جاءت مرحلة تطور العلم الوضعي من اللاهوت، وتطور التوحيد من الأنيميزم، وقد رد العلماء تفسيراتهم إلى الأصول السيكولوجية والتاريخية خاصة عند دراستهم للدين والنظم الدينية.[1]

وقد تميز القرن التاسع عشر بنظرة علمائه إلى البحث في تطور العائلة وتطور الدين ومن بين الذين اهتموا بالنظم الدينية "وليام روبيرتسون سميث" الذي وضع الأسس الأولية لدراسات علم الاجتماع المقارن من خلال دراسته التي أجراها عام 1894 على الوثائق القديمة المتصلة بتاريخ العرب والعبرانيين القدماء. أما إدوارد تايلور فقد اهتم بما يسمى بالرواسب أو البقايا، حيث يرى أن العقائد والطقوس الدينية قد ظهرت ونمت من بعض الاستنتاجات الخاطئة التي بنيت على ملاحظة ظواهر معينة كالأحلام والرؤى والمرض واليقظة والنوم والموت. وقد جاءت المناهج المستخدمة في تفسيرات النظم الدينية من جانب العلماء على النحو التالي:

- **المنهج التاريخي:** ويقوم على تتبع المراحل التاريخية التي مرت بها الظواهر الدينية والاهتمام بتجميع المعلومات المتعلقة بالشعوب والجماعات. واستند هذا المنهج إلى ما يسمى بالاتجاه التحليلي القياسي ويؤخذ على هذا المنهج عدم إعطائه المعلومات العلمية الدقيقة في إعطاء التصورات التي تخص القيم والعقائد والممارسات الدينية.

---

[1]– إيفانز بريتشارد، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ترجمة: أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، 1980، ص، 54– 55.

- **المنهج الوظيفي:** ويعتمد على معطيات الوقائع الاجتماعية المختلفة السياسية والاقتصادية والبيئية والدينية والتي بينها علاقات وظيفية، وأن أي تغير يطرأ على إحدى هذه النظم يسبب تغيرا مماثلا في النظم الأخرى، ويهدف هذا المنهج إلى إبراز قيام علاقات التناظر والتساند أو ما يسمى الاعتماد المتبادل بين الأنساق والنظم. وقد أمكن من خلال تطبيقات هذا المنهج الوصول إلى معرفة الدور الاجتماعي والوظيفة الاجتماعية التي تقوم بها الظاهرة الدينية في إطار البناء الكلي. وفي ضوء ذلك نظر العالم الأمريكي روبرت ميرتون أحد مؤسسي علم الاجتماع إلى أن الدور الوظيفي للدين يتمثل في المحافظة على تماسك الجماعة، ومدى ارتباط النتائج الموضوعية بالظاهرة داخل النسق والتي تعد الظاهرة جزءا منه.[2]

- **المنهج المقارن:** ويهدف إلى دراسة ومقارنة الظواهر في مجتمعين مختلفين، لبيان مدى اتفاق واختلاف طبيعة الظاهرة من جهة ولبيان مدى انتشارها من جهة أخرى. وقد اهتم عدد من العلماء باستخدام المنهج المقارن في البحث عن مدى تشابه المعتقدات الدينية والشعائر وبعض الممارسات المرتبطة بالظواهر الدينية، ولقد توصل بعض العلماء ممن استخدموا المنهج المقارن إلى أن هناك بعض الطقوس والممارسات الدينية المتشابهة بين المجتمعات البدائية، ومنها ظاهرة عبادة السلاف والطوطمية، والتابو، أو المُحرم مع وجود بعض الاختلافات التي تحكمها اختلافات البيئات والثقافية لتلك المجتمعات.[3]

وتوضيح غالبية الدراسات التي تناولت نشأة الأديان وتاريخها أن الاعتقاد الديني يتم وفق مسلكين هما:

أ/الاعتقاد الديني الرسمي:

وهو الذي يلتزم فيه الفرد بالأصول والنصوص وقواعد الشريعة ومبادئها وممارسة كل ذلك من خلال مؤسسات دينية في وضوح أمام الدولة أو النظام الرسمي العام للمجتمع. عرَّفَ عبد الغني عماد الدين الرسمي بأنه: " المعتقدات والممارسات الدينية كما تحدّدها المؤسسة الدينية التاريخية وعلماء الدين القائمون عليها". ويتمثل في المجتمع العربي عند المسلمين بالمعاهد الدينية والمساجد والفقهاء، والشيوخ وعلماء الدين المعنيين بتفسير المعتقدات والطقوس انطلاقًا من النص القرآني والشريعة والوحي. ويُعتبر الأزهر لدى السنة أهم رموز هذه المؤسسة الرسمية بينما يُعتبر النجف مركز المؤسسة الشيعية. كذلك يتمثل الدين الرسمي لدى المسيحيين العرب بالكنائس والبطريركيات المختلفة. ومن منظور هذه المؤسسات يصدر ما يعتبر التفسير الصحيح والأصيل للمعتقدات والممارسات الدينية، ويترسّخ الدين الرسمي حيث تقوم تراتبية هرمية بين رجال الدين وعلمائه فيحصلون على الألقاب والامتيازات وتتوثق بالسلطة السياسية وبخاصة منذ العهد العثماني حين منح علماء الدين رتبًا وألقابًا تدل على مواقعهم في هرمية السلطة الدينية، أما العناصر الأساسية التي يتشكّل منها الإسلام الرسمي فهي المؤسسة، والنص أو الكلمة،

---

[2]– أحمد الخشاب، علم الاجتماع الديني، مفاهيمه النظرية وتطبيقاته العلمية، دار الاتحاد، للطباعة، القاهرة، 1970، ص 35.

[3]– محمد أحمد بيومي، علم الاجتماع الديني، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1985، ص ص، 411– 414.

والشريعة، وفكرة التوحيد مقرونة بغياب وسطاء بين المؤمن والله والتفسيرات الأصولية والعلاقة الوثيقة بالسلطة المركزية الحاكمة، والمسجد والفقهاء.[4]

ب/ الاعتقاد الديني غير الرسمي: (التدين الشعبي)

وهو المسلك الذي يدخل إليه الفرد مهيئا لقبول فكرة التشديد على الاختيار الروحي، وهي التي تمنحه فكرة التدرج في علاقته بالله، مع القدرة على قبول فكرة تأويل الدين من خلال الرموز والصور الخاصة بالجماعة الدينية (الصوفية)، بعيدا عن القواعد الأساسية أو الرسمية، حيث يتم التعبد عن طريق الوجدان والتعاليم الروحية عن طريق وسيط تتجسد فيه صفات الصلاح والكرامات.

بتوضيح هذين المسلكين يتضح أن الدين الشعبي له جملة من الخصائص لا تخلو من الجوانب الاستراضائية والتي تبتعد عن حرفية النص المكتوب، ويعرف بأنه دين الطبقات الشعبية، وبعد التدين الشعبي أداة من أدوات العوام لحل المشكلات التي تواجههم بطريقة ذاتية، فالتدين الشعبي هو وسيلة لإشباع بعض الاحتياجات الاجتماعية غير المحققة في الواقع الاجتماعي. فالدين غير الرسمي هو ظاهرة جماعية موجهة نحو المقدس وما فوق الطبيعي، أي أن التدين الشعبي قد تمت صياغته في ضوء ارتباطية بالموروثات الثقافية بعض النظر عما إذا كانت تلك الموروثات الثقافية العقائدية دينية أم سحرية وما يرتبط بها من طقوس وممارسات وشعائر.[5]

هناك عدة دراسات عنيت بتفسير الدين والمعتقدات الدينية ومنها تلك التي قامت بها " مرغريت ميد" و " مالينوفسكي" وغيرهم، حيث كان تركيزهم منصبا حول دراسة الدين والشعائر والطقوس والطابو والسحر، وتهدف هذه الدراسات إلى محاولو تفسير السلوك الاجتماعي المتعلق بالمقدس على أساس المشاعر أو فهم الحالات الانفعالية مثل الكراهية والحب والخوف والرهبة والإحساس بوجود عالم الغيب والقوى الخارقة للعادة وترى هذه النظرية أن السلوك الإنساني يظهر في المواقف التي تتميز بالإجهاد الانفعالي أو التوتر وأن كانت بعض النظريات التجريبية الحديثة في علم النفس قد بينت أن بعض هذه التأويلات يصاحبها كثير من الخلط وعدم الترابط .[6]

فالدين من الناحية النفسية ظاهرة إنسانية عامة. ويعرف الدين بأنه مذهب للفكر والعمل المشترك لأعضاء الجماعة فيعطي للفرد إطارا للتوجيه وموضوعا للعبادة. وفي هذا السياق يؤكد " إيرك فروم" على أنه لا وجود لإنسان بغير حاجة دينية، فهناك أشكال عديدة من العبادة، كعبادة الأشجار والحيوان والقديسين والحكماء وكلها في نظر فروم نوع من الدين. وهو الدين الذي جاء تعريفه في " معجم أكسفورد" بأنه اعتراف الإنسان بقوة غير منظورة تتحكم في مصيره، ولها عليه حق الطاعة والتبجيل والعبادة، وأن الإنسان تحكمه قوة خارج نفسه.

---

[4]– للمزيد أنظر: شحانه صيام، " الدين الشعبي في مصر "(من التصوف إلى السحر)، الفصل التمهيدي، دار رؤية للنشر، القاهرة، ص ص، 8– 22.

[5]– نبيلة ابراهيم، الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق، مكتبة القاهرة الحديثة، 1967، ص ص، 1201–123.

[6]– محمد حسن غامري، مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص، 126.

حظيت النظرية التطورية والتفسير التطوري في القرن التاسع عشر باهتمام العديد من العلماء والمفكرين والأنثروبولوجيين. وهي تقوم على التفسير المرحلي لتطور الظواهر ومنها الدين، حيث أن وجود الدين- وفقا لهذه النظرية- لدى المجتمعات البدائية موجود منذ القدم، أما فكرة وجود الله فلم تظهر السير جيمس فريزر في الدين والسحر حيث الإيمان بوجود المعرفة الإنسانية وتطورها في مراحل ثابتة واضحة المعالم. وقد استلهم فريزر آراءه الخاصة بهذه النظرية في ضوء البيانات والمعلومات التي جمعها من المجتمعات المراد دراستها، وظهر ذلك في صياغته لنظريته عن الطوطمية أو النظام الطوطمي.

واهتم " إيميل دور كايم" بدراسة وتفسير النظم والممارسات الدينية، وتدور نظريته في أن الدين مسألة اجتماعية وليس مسألة فردية. وقد حدد الدين بأنه نظام من المعتقدات المقدسة وأن مشاركة المجتمع في تلك الممارسات ضرورة استمرارية نابعة من هذه المشاركة. وإذا كانت درجة استمرارية النظام الديني يرتكز على قوة الإيمان بتلك العقائد والأوامر فقد طرحت نظرية دور كايم تساؤلا مؤداه: كيف يمكن لتلك الأوامر الاجتماعية أن تتحقق خاصة وأن المجال الديني يعد من النظم الرئيسية داخل المجتمع؟ وفي مطلع إجابته على هذا التساؤل أكد دور كايم على أهمية العطاء للجماعة الدينية كما اهتمت النظرية بالطابع التصوفي لكل من الفرد والجماعة وممارسة الطقوس الدينية التي من شأنها- في نظر دور كايم- تدور حول خدمة أعضاء المجتمع.

وقد تبلورت نظرية دور كايم في مؤلفه " الصور الأولوية للحياة الدينية، حيث يرى أن بعض المظاهر والطقوس مثل تقديم الأضحيات والقرابين للأسلاف هو جزء من الدين وهي من الأعمال المقدسة ويرى أن تقديم الزعيم القرابين للآلهة لا يعتبر عملا فرديا بل هو عمل جماعي يقدمه نيابة عن الجماعة، وهو يعد عملا دينيا.[7] ومن هنا أكد دور كايم على ضرورة تفهم وجهة نظر الناس حول الشعائر التي يمارسونها، لأن لها في الدرجة الأولى مدلولا اجتماعيا، ومن هنا ظهرت أيضا فكرة التصورات الجمعية عند دور كايم.

وقد أوضحت بعض الدراسات أن الاهتمام بدراسة النسق الديني تتطلب التعرف على طبيعة تلك القوى ومعرفة تحديد مواقف الإنسان منها وعلاقة بها، وكذلك التعرف على نسق المعتقدات التي تكمن وراء تلك القوى، مع ضرورة الاهتمام بدراسة طبيعة العلاقات التي تقوم بين جماعة المتدينين ومدى وصور التمسك بتعاليمهم الروحية وتطبيق تلك المبادئ على نظم حياتهم اليومية وكيفية تيسير نظمهم وشعائرهم الدينية. فضلا عن الاهتمام بالنظام الثقافي والتراثي، مع إعطاء أهمية للرموز ومحاولة تفسيرها للوقوف على طبيعة النظم المحركة للنظام البشري داخل المجتمعات الإنسانية.

[7]- محمد حسن غامري، المرجع السابق، ص ص ، 127- 128.